وزارة التعلـــيم العـــالي والبحـــث العلمـــي
جامعـــــــــــــــة تكريـــــــــــــــت
كليـــــة التربيـــــة للعلـــــوم الإنســـــانية
قسم اللغة العربية/ المرحلة الثانية

محاضـــــــــرات فـــــــي مـــــــادة نصـــــــوص قديمـــــــة

العنوان

(باب البيان عن حدود الأدب)

اعداد

م.د. الهام روكان عبد

١٤٤٥هـ ٢٠٢٤م

البيان عن حدود الأدب

وما يجب على الأدباء من الفحص والطلب

اعلم أن أول ما يجب على العاقل المنفصل بصفته عن الجاهل أن يتبعه ويميل إليه، ويستعمله ويحرص عليه، مجالسة الرجال ذوي الألباب، والنظر في أفانين الآداب، وقراءة الكتب والآثار، ورواية الأخبار والأشعار، وأن يحسن في السؤال، ويتثبت في المقال، ولا يكثر الكلام والخطاب، إن سئل عمّا يعلمه أجاب، وإن لم يسأل صمت للاستماع، ولم يتعرض لمكروه الانقطاع. فقد روي في الخبر المأثور أن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال:((أغد عالماً، أو متعلماً، أو مستمعاً، ولا تكن الرابع فتهلك)). والصمت أحسن بالرجل من الهذر في منطقه، والكلام فيما لا يعنيه، والتسرع إلى ما يكون على وجل منه. وقد قال بعض الشعراء:

يموت الفتى من عثرة بلسانه ... وليس يموت المرء من عثرة الرجل

فعثرته من فيه ترمي برأسه ... وعثرته بالرجل تبرا على مهل

وقال أبو العتاهية:

إذا كنت عن أن تحسن الصمت عاجزاً ... فأنت عن الإبلاغ في القول أعجز

يخوض أناس في المقال ليوجزوا ... وللصمت عن بعض المقالات أوجز

وقال أيضاً:

قد أفلح الساكت الصموت ... كلام راعي الكلام قوت

ما كل نطق له جواب ... جواب ما تكره السكوت

وقال النبي، صلى الله عليه وسلم: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيراً أو ليسكت، وقال: من صمت نجا.

وكان أعرابي يجالس الشعبي يطيل الصمت، فقال له يوماً: لم لا تتكلم؟ فقال: أسمع لأعلم وأسكت فأسلم.

وقال أبو هريرة: ثمرة القلب اللسان. وقيل لعيسى بن مريم، عليه السلام: ما مبدى علم القلب وجهله؟ قال: اللسان. قال: فأين يلزم الصمت؟ قال: عند من هو أعلم منكم، وعند الجاهل إذا جالسكم.

وقال بعض الشعراء:

تعاهد لسانك إن اللسا ... ن سريع إلى المرء في قتله

وهذا اللسان بريد الفؤا ... د يدل الرجال على عقله

وقال آخر:

أستر النفس ما استطعت بصمت، ... إن في الصمت راحة للصموت

واجعل الصمت إن عييت جواباً ... رب قول جوابه في السكوت

وقال أبو العتاهية:

لا خير في حشو الكلا ... م إذا اهتديت إلى عيونه

والصمت أجمل بالفتى ... من منطق في غير حينه

وقال لقمان لابنه: يا بني إن غلبت على الكلام، فلا تغلب على الصمت، فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول. إني ندمت على الكلام مراراً ولم أندم على الصمت مرة واحدة. وقال إبراهيم بن المهدي في هذا المعنى فأحسن:

إن كان يعجبك السكوت فإنه ... قد كان يعجب قبلك الأخيارا

ولئن ندمت على سكوتك مرة ... فلقد ندمت على الكلام مرارا

إن السكوت سلامة ولربما ... زرع الكلام عداوة وضرارا

فحقيق على الأديب أن يخزن لسانه عن نطقه، ولا يرسله في غير حقه، وأن ينطق بعلم، وينصت بحلم، ولا يعجل في الجواب، ولا يهجم على الخطاب. وإن رأى أحداً هو أعلم منه، نصت لاستماع الفائدة عنه، وتحذر من الزلل والسقط، وتحفظ من العيوب والغلط، ولم يتكلم فيما لا يعلم، ولم يناظر فيما لا يفهم، فإنه ربما أخرجه ذلك إلى الانقطاع والاضطراب، وكان فيه نقصه عند ذوي الألباب. وقد قال الأعور الشني فأجاد:

ألم ترَ مفتاح الفؤاد لسانه ... إذا هو أبدى ما يقول من الفم

وكائن ترى من صامت لك معجب ... زيادته أو نقصه في التكلم

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده ... فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

ومثله قول الأخطل أيضاً:

إن الكلام من الفؤاد وإنما ... جعل اللسان على الفؤاد دليلا

وأخبرني أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب قال: كان بكر بن عبد الله المزني يقل الكلام، فقيل له في ذلك، فقال: لساني سبعٌ، إن تركته أكلني، وأنشد:

لسان الفتى سبع عليه شذاته ... فإلا يزع من غربه فهو آكله

وما العيّ إلا منطق متبرع ... سواء عليه حق أمر وباطله

قال أبو الطيب قوله: شذاته، أي حده، وقال بعض الحكماء: الزم الصمت تعد حكيماً كنت أم عليماً؛ وقال الهيثم بن الأسود النخعي:

من يستعن بالصمت يوماً فإنه ... يقال له لبٌ نهاه أصيل

وإن لسان المرء ما لم تكن له ... حصاة، على عوراته، لدليل

وكان يقال: الصمت صون اللسان وستر العي. أنشدني أحمد بن يحيى ثعلب للخطفى بن بدر:

عجبت لإزراء العييّ بنفسه، ... وصمت الذي قد كان بالقول أعلما

وفي الصمت ستر للعيي، وإنما ... صحيفة لبّ المرء أن يتكلما

والعرب تقول: عَيٌّ صامت خير من عَيٌّ ناطق.

وكان ربيعة الرأي كثير الكلام، فتكلم يوماً، وأكثر ثم قال لأعرابي عنده: أتعرف ما العي؟ قال: نعم، ما أنت فيه منذ اليوم. وقال أكثم بن صيفي: حتف الرجل بين لحييه؛ وأنشدني أحمد بن عبيد لأبي محمد اليزيدي:

حتف امرئ لسانه ... في جده، أو لعبه

بين اللَّها مقتله، ... ركب في مركبه

ورب ذي مزح أُمي ... تت نفسه في سببه

ليس الفتى كل الفتى ... إلا الفتى في أدبه

وبعض أخلاق الفتى ... أولى به من نسبه

وكان يقال: لسانك عبدك، فإذا تكلمت صرت عبده. وقال بعض الحكماء: أنا بالخيار ما لم أتكلم، فإذا تكلمت صار الكلام علي بالخيار. وقال آخر: لساني في حبس بدني ما لم أطلقه على نفسي، فإذا أطلقته صار بدني في حبس لساني. وقال آخر: الكلمة أسيرة في وثاق الرجل، فإذا تكلم بها صار في وثاقها. وقال الشعبي: أنا على اتباع ما لم أوقع أقدر مني على ردّ ما أوقعت. وتكلم أربعة من الملوك بأربع كلمات، خرجن كلهن بمعنى. فقال كسرى: أنا على قول ما لم أقل أقدر مني على رد ما قلت. وقال قيصر: لا أندم على ما لم أقل، فإنما أندم على ما قلت. وقال ملك الصين: إذا تكلمت بالكلمة ملكتني، ولم أملكها. وقال ملك الهند: عجبت لمن يتكلم بالكلمة إن حكيت عنه ضرته، وإن لم تذكر لم تنفعه. وقال امرؤ القيس:

إذا المرء لم يخزن عليه لسانه، ... فليس على شيء سواه بخزان

وقالت الفلاسفة: اللسان خادم القلب. وقالت العلماء: اللسان كاتب القلب، إذا أملى عليه شيئاً أتى به.

وأنشدني عبيد الله بن عبد الله بن طاهر:

رأيت لسان المرء راعي نفسه، ... وعاذره إن ليم، أو زل سائره

فمن لزمته حجة من لسانه، ... فقد مات راعيه وأفحم عاذره

ولئن كان السكوت جميلاً، لقد جعل الكلام جليلاً، ما لم يتعد المتكلم في

كلامه، ويتجاوز في الكلام حدّ نظامه. وقد أنشدني أحمد بن يحيى ثعلب:

ما في الكلام على الأنام أثام، ... بل فيه عندي النقض والإبرام

لولا الكلام لما تبينا الهدى، ... وتعطلت في ديننا الأحكام

فزن الكلام، إذا أردت تكلما، ... ودع الفضول، ففي الفضول ملام

وليس بعيب على الأديب، وإن كان مستقلاً بما لديه، استخذاؤه للمتقدم في العلم عليه، ولا في سؤاله فيما

غُيبت معرفته عنه، من هو أعلى درجة في العلم منه. وأنشدني أحمد بن يحيى ثعلب:

تمام العمى طول السكوت، وإنما ... شفاء العمى يوماً سؤالك من يدري